خَبَّابُ بنُ الأَرَتّ

أُسْتَاذُ فَنِّ الفِدَاء

خرج نَفَرٌ من القرشيين. يُغِذُّون الخُطَى. ميممين وجوههم شَطْر دار «خَبَّاب» ليتسلموا منه سيوفهم التى تَعَاقَدُوا معهُ على صنعها..

وقد كان «خَبَّاب» سَيَّافًا، يصنع السيوف ويبيعها لأهل مكة، ويُرْسل بها إلى الأسواق..

وعلى غير عادة «خَبَّاب» الذى لا يكاد يُفارق داره وعمله، لم يجده ذلك النفر من قريش فجلسوا ينتظرونه..

وبعد حين طويل جاء «خَبَّاب» على وجهه علامة استفهام مضيئة، وفى عينيه دموعٌ مغتبطة.. وحَيَّا ضيوفه وجلس...

وسألوه عَجِلين: هل أتممتَ صنع السيوف يا خَبَّاب؟؟

وجفّت دموع خَبَّاب، وحل مكانها فى عينيه سرور متألق، وقال وكأنه يُناجى نفسه: إن أمره لَعَجَب..

وعاد القوم يسألونه: أىُّ أمر، يارجُل..؟؟ نسألك عن سيوفنا، هل أتممتَ صُنعها..؟؟

ويستَوْعبهم «خَبَّاب» بنظراته الشاردة الحالمة ويقول:

- هل رأيتموه..؟ وهل سمعتم كلامه..؟؟

وينظر بعضهم فى دهش وعَجَب..

ويعود أحدهم فيسأله فى خُبْث:

- هل رأيته أنت ياخَبَّاب..؟؟

ويسخر «خَبَّاب» من مكر صاحبه، فيردّ عليه السؤال قائلا:

- من تَعْنى..؟؟

ويجيب الرجل فى غيظ: أعنى هذا الذى تعنيه..؟؟

ويجيب «خَبَّاب» بعد إذْ أرَاهُم أنه أبعد منالاً من أن يُسْتَدْرَج، وأنه إن اعترف بإيمانه الآن أمامهم، فليس لأنهم خدعوه عن نفسه، واستدرجوا لسانه، بل لأنه رأى الحق وعانَقَهُ، وقرر أن

يَصْدَع به ويجهر..

يُجيبهم قائلاً، وهو هائم فى نشوته وغبطة رُوحه:

- أجَلْ.. رأيته، وسمعته.. رأيتُ الحق يتفجَّر من جوانبه، والنور يتلألأ بين ثناياه..!!

وبدأ عملاؤه القرشيون يفهمون. فصاح به أحدهم:

- مَنْ هذا الذى تتحدث عنه يا عبد أُمِّ أنمار..؟؟

وأجاب «خَبَّاب» فى هدوء القدِّيسين:

- ومَنْ سِوَاه، يا أخا العرب.. مَنْ سِواه فى قومك، يتفجَّر من جوانبه الحق، ويخرج النور من بين ثناياه..؟!

وصاح آخر، وقد هَبَّ مذعورًا:

- أراك تعنى محمدًا...

وهزَّ «خَبَّاب» رأسه المفعم بالغبطة، وقال:

- نعم، إنه هو رسول الله إلينا، ليخرجنا من الظُّلَمَات إلى النور...

ولايدرى «خَبَّاب» ماذا قال بعد هذه الكلمات، ولا ماذا قيل له.. كل ما يذكره أنه أفاق من غيبوبته بعد ساعات طويلة ليرى

زواره قد انفضُّوا.. وجسمه وعظامه تُعَانى رُضُوضًا وآلامًا، ودمه النازف يُضَمِّخ ثوبه وجسده..!!

وحدَّقَتْ عيناه الواسعتان فيما حوله.. وكان المكان أضيق من أن يتسع لنظراتها النافذة، فتحامل على آلامه، ونهض شَطْرَ الفضاء، وأمام باب داره وقف متوكئًا على جدارها، وانطلقت عيناه الذكيتان فى رحلة طويلة تُحَدِّقَان فى الأفق، وتدوران ذات اليمين وذات الشمال.. إنهما لا تقفان عند الأبعاد المألوفة للناس.. إنهما تبحثان عن البُعد المفقود..

أجلْ.. تبحثان عن البُعد المفقود فى حياته، وفى حياة الناس الذين معه فى مكة، والناس فى كل مكان وفى كل زمان..

تُرى، هل يكون الحديث الذى سمعه من «محمد» عليه الصلاة والسلام اليوم، هو النور الذى يهدى إلى ذلك البعد المفقود فى حياة البشر كافة..؟؟

واستغرق «خَبَّاب» فى تأمُّلات سامية، وتفكير عميق.. ثم عاد إلى داخل دَاره.. عاد يُضَمِّد جراح جسده، ويُهيئه لاستقبال تعذيب جديد، وآلام جديدة..!!

ومن ذلك اليوم أخذ «خَبَّاب» مكانه العالى بين المعذَّبين

والمضطهدين.. أخذ مكانه العالى بين الذين وقفوا - برغم فقرهم، وضعفهم - يواجهون كبرياء قريش وعُنْفها وجُنُونها...

أخذ مكانه العالى بين الذين غرسوا فى قلوبهم سارية الراية التى أخذت تخفق فى الأفق الرحيب ناعيةً عصرَ الوثنية، والقيصرية.. مُبشرةً بعالم الله الذى يعبده الناس وحده مخلصين له الدِّين.. ومُبشرة بأيام المستضعفين والكادحين، الذين سيقفون تحت ظل هذه الراية سَوَاسِية مع أولئك الذين استغلوهم من قبل، وأذاقوهم الحرمان والعذاب..

وفى استبسال عظيم، حمل خَبَّابٌ تبعاته كرائد..

يقول الشَّعْبى:

«لقد صبر «خَبَّابٌ»، ولم تَلِنْ له بين أيدى الكفار قناة، فجعلوا يلصقون ظهره العارى بالرَّضَف[1] حتى ذهب لحمه»..!!

أَجَلْ.. كان حظ «خَبَّاب» من العذاب كبيرًا، ولكن مقاومته وصبره كانا أكبر من العذاب..

لقد حَوَّل كفار قريش جميع الحديد الذى كان بمنزل «خَبَّاب» والذى كان يصنع منه السيوف.. حَوّلوه كله إلى قيود وسلاسل،

(١) أى الحجارة المحماة.

كان يُحمى عليها فى النار حتى تستعر وتتوهج، ثم يُطَوَّق بها جسده ويداه وقدماه..

ولقد ذهب يومًا مع بعض رفاقه المضطهدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا جَزعين من التضحية، بل راجين العافية، فقالوا: «يا رسول الله.. ألا تَسْتَنْصِرُ لنا..؟؟» أى تسألُ الله لنا النصر والعافية..

ولْنَدع «خَبَّابًا» يروى لنا النبأ بكلماته:

«شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُتَوَسِّدٌ بِبُرْدٍ له فى ظل الكعبة، فقلنا: يارسول الله، ألا تَسْتَنْصِرُ لنا..؟؟

«فجلس صلى الله عليه وسلم. وقد احمرَّ وجهه وقال:

«قد كان مَنْ قبلكم يُؤْخذ منهم الرَّجُل، فَيُحْفَر له فى الأرض، ثم يُجَاءُ بالمنشار، فيجعل فوق رأسه، ما يَصْرِفه ذلك عن دينه..!!

«ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، مايَصْرِفه ذلك عن دينه..!!

«وَلَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من «صَنْعَاء» إلى «حضرمَوْت» لايَخشى إلا الله عزّ وجلّ.

والذئبَ على غَنَمه. ولكنكم تَعْجَلُون»..!!

سمع «خَبَّاب» ورِفاقه هذه الكلمات. فازداد إيمانهم وإصرارهم وقرَّرُوا أن يُرِىَ كل منهم ربَّه ورسوله ما يُحِبَّان من تصميم، وصبر، وتضحية.

وخاض «خَبَّاب» معركة الهول صابرًا، صامدًا، مُحْتَسِبًا... واستنجد القرشيون بـ «أم أنمار» سيدة خبَّاب التى كان عبدًا لها قبل أن تُعْتِقه. فأقبلت واشتركت فى حملة تعذيبه..

وكانت تأخذ الحديد المحمى الملتهب. وتضعه فوق رأسه ونافوخه، وخبَّاب يتلوى من الألم. لكنه يكظم أنفاسه. حتى لا تخرج منهُ زفرة تُرْضى غرور جلاديه..!!

ومرَّ به رسول الله صلى عليه وسلم يومًا. والحديد المحمىُّ فوق رأسه يُلهبُه ويشويه. فطار قلبه رحمة وحنانًا وأسىً، ولكن ماذا يملك عليه الصلاة والسلام يومها لخبَّاب..؟؟

لاشىء.. إلّا أن يُثَبِّته ويدعو له..

هنالك رفع الرسول صلى الله عليه وسلم كفيه المبسوطتين إلى السماء، وقال:

«اللهمَّ انصُرْ خَبَّابًا»..

ويشاء الله ألّا تمضى سوى أيام قليلة حتى ينزل «بأم أنمار» قصاص عاجل. كأنما جعله القدر نذيرًا لها ولغيرها من الجلادين. ذلك أنها أصيبت بِسُعار عصيب وغريب جعلها - كما يقول المؤرخون - تعوى مثل الكلاب..!!

وقيل لها يومئذ: لا علاج لها سوى أن يُكْوَى رأسها بالنار..!!

وهكذا شهد رأسها العنيد سطوة الحديد المُحْمِىِّ يُصَبِّحه ويمسِّيه..!!

* * *

كانت قريش تقاوم الإيمان بالعذاب.. وكان المؤمنون يقاومون العذاب بالتضحية.. وكان «خَبَّاب» واحدًا من أولئك الذين اصطفتهم المقادير لتجعل منهم أساتذة فى فن التضحية والفداء..

ومضى «خَبَّاب» ينفق وقته وحياته فى خدمة الدين الذى خفقت أعلامه...

ولم يكتف - رضى الله عنه - فى أيام الدعوة الأولى بالعبادة والصلاة، بل استثمر قدرته على التعليم، فكان يغشى بيوت بعض إخوانه من المؤمنين الذين يكتمون إسلامهم خوفًا من بطش قريش. فيقرأ معهم القرآن ويُعلمهم إياه...

ولقد نبغ فى دراسة القرآن وهو يتنزَّل آية، آية.. وسورة، سورة حتى إن «عبد الله بن مسعود»، وهو الذى قال عنه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنْزِلَ، فليقرأه بقراءة ابن أُم عَبْد»...

نقول:

حتى «عبد الله بن مسعود» كان يعتبر «خَبَّابًا» مَرْجِعًا فيما يتصلُ بالقرآن حفظًا ودراسة..

وهو الذى كان يدرس القرآن لـ «فاطمة بنت الخطاب» وزوجها «سعيد بن زيد» عندما فاجأهم «عمر بن الخطاب» متقلدًا سيفه الذى خرج به ليصفى حسابه مع الإسلام ورسوله، لكنه لم يكد يتلو القرآن المسطور فى الصحيفة التى كان يُعَلِّم منها «خَبَّاب». حتى صاح صيحته المباركة:

«دُلُّونى عَلَى محمد»..!!

وسمع «خباب» كلمات «عمر» هذه، فخرج من مَخْبَئِه الذى كان قد تَوَارى فيه. وصاح:

«ياعمر...

والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه

صلى الله عليه وسلم، فإنى سمعته بالأمس يقول:
«اللهم أيِّد الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك.. أبى الحكم ابن هشام وعمر بن الخطاب»..

وسأله عمر من فوره: وأين أجد الرسول الآن ياخباب..؟؟

وأجاب خبَّاب:

«عند الصَّفا، فى دار الأرقم بن أبى الأرقم»..

ومضى «عمر» إلى حظوظه الوافية، ومصيره العظيم...!!

* * *

شهد «خبَّاب بن الأرَتّ» جميع المشاهد والغزوات مع رسول الله، وعاش عمره كله حفيظًا على إيمانه ويقينه...

وعندما فاض بيت مال المسلمين بالمال أيام «عمر»، و «عثمان»، رضى الله عنهما، كان «خبَّاب» صاحب راتب كبير بوصفه من المهاجرين السابقين إلى الإسلام..

وقد أتاح هذا الدخل الوفير لخبَّاب أن يبتنى دارًا له بالكوفة، وكان يضع أمواله فى مكان مَّا من الدار يعرفه أصحابه وَرُوَّاده... وكل من وقعت به حاجةٌ، يذهب فيأخذ من المال حاجته...

ومع هذا، فقد كان «خبَّاب» لا يَرْقَأُ له جفن، ولا تجفُّ له

دمعة كلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين بذلوا حياتهم لله، ثم طفروا بلقائه قبل أن تُفْتَح الدنيا على المسلمين، وتكثر فى أيديهم الأموال.

اسمعوه وهو يتحدث إلى عُوَّادِه الذين ذهبوا يعودونه وهو رضى الله عنه فى مرض موته.

قالوا له:

- أبشِرْ يا أبا عبد الله، فإنك مُلَاقٍ إخوانك غدًا...

فأجابهم وهو يبكى:

«أمَا إنه ليسَ بى جَزَع... ولكنكم ذكَّرتمونى أقوامًا وإخوانًا، مَضَوْا بأجورهم كلها لم ينالوا من الدنيا شيئًا..

«وإنّا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا مالم نجد له موضعًا إلا التراب»...

وأشار إلى داره المتواضعة التى بناها.

ثم أشار مرة أخرى إلى المكان الذى فيه أمواله وقال:

«والله ماشَدَدْتُ عليها من خيط. ولا مَنَعْتها عن سائل»..!

ثم التفت إلى كفنه الذى كان قد أُعِدَّ له. وكان يراه ترفًا وإسرافًا وقال ودموعه تسيل:

«انظروا.. هذا كفنى..

لكنَّ «حمزة» عمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوجَدْ له كفن يوم استشهد إلا بُرْدَة ملحاء... إذا جُعلت على رأسه قَلَصَتْ عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه»..!!

* * *

ومات «خبَّاب» فى السنة السابعة والثلاثين للهجرة..

مات أستاذ صناعة السيوف فى الجاهلية..

وأستاذ صناعة التضحية والفداء فى الإسلام..!!

مات الرجل الذى كان أحد الجماعة الذين نزل القرآن يدافع عنهم. ويحييهم عندما طلب بعض السادة من قريش أن يجعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا، وللفقراء من أمثال «خبَّاب» و «صهيب»، و «بلال» يومًا آخر.

فإذا القرآن العظيم يَحْتَضِنُ رجال الله هؤلاء فى تمجيد لهم وتكريم، وَتُهِلُّ آياته قائلةً للرسول الكريم:

﴿ولا تَطْرُدِ الذين يَدعون ربَّهم بالغَداةِ والْعَشِيِّ يريدون وَجْهه، ما عليكَ مِن حسابهم من شيء، وما من حِسَابِكَ عليهم مِن شيء فتطردَهم فتكون من الظالمين. وكذلك فَتَنَّا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ أَلَيْسَ الله بأعلَمَ بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا، فَقُلْ: سَلَامٌ عليكم، كتبَ رَبُّكُم على نفسِه الرَّحْمَة﴾.

وهكذا، لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يراهم بعد نزول هذه الآيات حتى يبالغ فى إكرامهم فيفرش لهم رداءه، ويُرَبِّتُ على أكتافهم، ويقول لهم:

«أهلا بمَنْ أَوْصانى بهم ربى»..

أجَلْ.. مات واحد من الأبناء البَرَرَة لأيام الوحى، وجيل التضحية...

* * *

ولعلَّ خير ما نودِّعه به. كلمات الإمام علىّ كرَّم الله وجهه حين كان عائدًا من معركة صِفين، فوقعت عيناه على قبر غَضٍّ رطيب، فسأل: قبرُ من هذا..؟

فأجابوه: إنه قبر خبَّاب..

فتملّاه خاشعًا، آسيًا، وقال:

رَحِمَ الله خبَّابًا..

لقد أسلَم راغبًا..

وهاجر طائعًا..

وعاش مُجَاهدًا..